مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 14، العدد 54 (ربيع 2003)، ص 155

كتب بالعربية

دروب المنفى (5):
(أين بقية الحكاية؟)

فيصل حوراني

بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002. 503 صفحات.

بصدور الجزء الأخير من خماسية فيصل حوراني "دروب المنفى"، وهو الجزء الموسوم "أين بقية الحكاية؟"، تنغلق دائرة هذا الكتاب الضخم الذي تطاولت أعوام كتابته ونشره، وتوزعت جهات إصداره على أماكن متعددة، إذ تنقلت بين دمشق وعمّان وبيروت ورام الله. وكانت الأجزاء الأربعة الأولى صدرت من قبل بعناوين فرعية: "الوطن في الذاكرة" (1994)؛ "الصعود إلى الصفر" (1996)؛ "زمن الأسئلة" (1998)؛ "الجري إلى الهزيمة" (2001).

وباستكمال هذا الكتاب، تكون المكتبة الفلسطينية قد وضعت على رفوفها الكتاب الأكبر حجماً (2300 صفحة) من مجموع كتب "السيرة" الفلسطينية. وربما يكون واحداً من أكبر الكتب الفلسطينية حجماً.

هذه الإشارة العابرة لا تقصد إلاّ مجرد التنويه بالجهد الكبير المبذول في الكتابة، وحفز الذاكرة، واستقطار التفصيلات الخاصة والعامة؛ وهي ميزة لا تتوفر إلاّ لكاتب مواظب انطوت تجربته الشخصية على غنى وفرادة، اندغم فيها الذاتي مع الهموم العامة، وتوزعت كتابته بين الشأن السياسي المباشر والكتابة الصحافية والبحثية، وبين كتابة إبداعية أنتجت عدداً من الروايات التي لم تغب عنها الهموم السياسية والوطنية.

يتردد فيصل حوراني في وصف الجنس الأدبي الذي ينتمي إليه كتابه الضخم. ففي حين خلا الجزء الأول من وصف الجنس الكتابي للعمل، فإن الأجزاء الثاني والثالث والرابع جاءت لتحمل وصف الـ "شهادة"، في حين تفرّد الجزء الخامس بالإشارة إلى أنه "سيرة" ذاتية.

وربما يكون الاختيار الأخير قد حل بعد أن انتزع الكتاب "جائزة فلسطين للسيرة"، وحتى قبل صدور الجزأين الرابع والخامس، إذ اعتبرته لجنة جوائز فلسطين في الآداب والفنون والعلوم الإنسانية كتاباً يمتاز بالشمول ويتطرق إلى تفصيلات مرحلة تاريخية فلسطينية وعربية امتدت عدة عقود من الزمن، "بلغة سردية متقنة، وبصدق في رصد تفاصيل حياة الكاتب وعلاقته بالأحداث السياسية التي واكبها منذ البواكير الأولى لحياته." وهي سابقة ربما لم تحدث من قبل، إذ ينال كتاب جائزة مهمة قبل أن يكتمل صدوره.

قد ينطوي كتاب فيصل حوراني على مزايا أعظم مما أشارت إليه اللجنة المتحمسة للكتاب؛ فهو كتاب المكاشفة والبوح الأكثر صدقاً وجرأة في دخوله إلى كثير من المناطق الخبيئة في سرديات السيرة الفلسطينية، إذ يصل ذلك البوح، في بعض المشاهد واللحظات الدرامية المشحونة بالتوتر، وخصوصاً في الجزء الأول منه، إلى حد الألم.

* * *

في الجزء الخامس من الكتاب، وهو الذي يعنينا تحديداً في هذه القراءة، يواصل فيصل حوراني سردياته التي تابعناها في الأجزاء السابقة.

يشرع في عملية السرد هنا من معركة الكرامة، وهي نقطة تاريخية مفصلية تستحق شرف الاستهلال الحكائي الموضوعي، لينتهي بعد نحو عشرة أعوام من تاريخ هذه النقطة التحولية.

غير أن النهاية، التي وجدت ذروتها الذاتية في التقاط لحظة درامية هي الأجمل بين كل صفحات هذا الجزء من الكتاب، والمتمثلة في مرض الجد ورحيله، لم تجد موازياً موضوعياً له قيمة تاريخية مفصلية يمكن اعتبارها نقطة تحول يتم التوقف عندها، إذ حدث التوقف بعد خمسة أعوام من حرب تشرين الأول/أكتوبر، وثلاثة أعوام من اندلاع الحرب الأهلية في لبنان، وقبل أربعة أعوام من الحرب الإسرائيلية على لبنان واجتياح عاصمته سنة 1982؛ وهي نقاط تاريخية مفصلية كان يمكن استثمار إحداها للتوقف عندها في الرصد الموضوعي للأحداث.

مهما يكن، فما بين تلك البداية والنهاية، التي اختارها الكاتب لسرده، تمتد الأحداث على مساحة خمسمئة صفحة، يتلاصق فيها الذاتي بالموضوعي، والخاص بالعام، ويندغمان بلا فكاك.

تتفرد أسلوبية فيصل حوراني في سرده؛ فهو يستغل قدرته الفائقة على السرد الشفاهي ويستثمرها هنا في أسلوبية بسيطة ومتفردة. ولعل هناك من اكتشف تلك الميزة الشفاهية لدى فيصل وهو يقص تجاربه، فلفت انتباهه إلى ضرورة كتابتها كما يرويها من دون فذلكة أو ادعاء، أو نزوع إلى تحويلها إلى أعمال روائية قد تمسخ هذه التجربة بدعوى الإبداع الروائي.

ويبدو أن فيصل حوراني، الذي نشر من قبل ثلاث روايات، ولديه غيرها مما لم يتح له النشر، التقط هذا الاقتراح بذكاء وفّر له أن يكتب كما يروي تماماً، بما يتضمن حديثه اليومي العادي من طرائف، وتحليلات سياسية جادة، ورؤى نقدية بعيدة النظر، ونمائم يشهد الذين يعرفون فيصل أنه يتقنها بمهارة فائقة يُحسد عليها. وهو يقول عن نفسه في هذا الصدد، وبلغة تنطوي على شيء من الفخر: "وقد كنت أنا معدوداً بين الذين يتقنون الاستغابة ذات المستوى الراقي ولي في هذا رأي طالما سمعه أصحابي مني وهو أن الاستغابة وظيفة ممتعة من وظائف الجسد لا غنى عنها" (ص 338 – 339).

ومع هذه الأهمية التي يوليها الكاتب لفعل النميمة وسرديتها المتكئة على السخرية من الآخر، بشكليها المحبب حيناً والجارح أحياناً، وعلى الرغم من الدور الذي تؤديه في التخفيف من عبء سرد سياسي يتطاول في بعض الحالات ليثير الملل لدى القارئ، فإنها تأتي في بعض المواقف لتمنح ذات السارد تميزاً لا يخفيه الكاتب، وتؤدي إلى مزيد من تضخم الذات الذي يتبدى كثيراً في هذا العمل، وربما في هذا الجزء على وجه التحديد.

إن تعبير "اللغة المتقنة"، الذي استخدمته لجنة جائزة فلسطين في وصفها للغة فيصل حوراني في عمله هذا، هو على درجة كبيرة من الدقة، إذا كنا نفهم من اللغة المتقنة أنها تلك اللغة التي تقارب صوغ الحقيقة كما هي، وليست هي بالضرورة اللغة التي تصوغ العمل الإبداعي وتحلّق مع خيالاته الجامحة بجموح يقارب جنون الخيال.

والحقيقة أن مثل هذه اللغة أقرب إلى روح فيصل وكتابته. فأعمال هذا الكاتب، التي تنتمي إلى حقل الرواية، هي كتابات صادرة عن كاتب متمكن تماماً من حرفة الكتابة.. كاتب يمتلك لغة متينة، واثقة.. لكنها ليست صادرة بالضرورة عن فنان مبدع يتقن فن الرواية ويشتعل مع اشتعالات العملية الإبداعية!

* * *

تحتاج كتابة السيرة الذاتية، بشكل عام، إلى انتباه دقيق لكل كلمة وإشارة وعبارة، وإلى حذر لا يضاهيه إلاّ حذر السير في حقل الألغام، وإلاّ فإن السقوط في الشراك سيكون من نصيب كاتبها.

الشرك الأول المتربص بالسيرة الذاتية دائماً، يتمثل في أن محورية الأنا في هذا النوع من السرد تفضي في كثير من الحالات إلى تضخُّم الأنا الساردة، وإلى تورُّمها أحياناً بشكل مرضي لا يخفي تجلياته المعبَّر عنها بالكتابة.

قد لا تبلغ أنا الكاتب هنا مستوى التورُّم، وإن تبدت متضخمة في الكثير من المواقف، التي وإن كنا لا نشكك في صدقيتها فإن الملاحظة بشأنها تتركز على أسلوبية كتابتها، وهي الأسلوبية التي لم تلتفت إلى ضرورة قمع الأنا في نزوعها نحو التضخم الذي يثير الشك والريبة في الحكاية المروية.

فالكاتب يعبر عن سعادته لانصرافه عن "المناصب والمراتب وألقاب القيادة" (ص 485)، وهو يوحي بأن فيه شيئاً من "أخلاق الفرسان". يتعامل مع القادة، وبلا استثناء، بندية وبغير كلفة (ص 19)، وهم يصغون إليه بانتباه، بل إنهم يعرفون حدة وسلاطة لسانه ويخشونهما (ص 116).

ياسر عرفات.. "يميزني بمعاملة خاصة" (ص 124).. "معاملة توحي لي بأنه يخصني أنا وحدي بهذه المعاملة وهذا الاحترام" (ص 93). فتكثر خلواتهما المنفردة للبحث في القضايا الشائكة. ويحرص القائد على حضوره شاهداً في الاجتماعات المهمة، فـ "ما إن وصل عرفات إلى القاهرة حتى استدعاني واختلى بي" (ص 383). ولا ينتدبه القائد إلاّ

للمهمات النظيفة، و"كان يطلبها مني بصيغة رجاء"، إذ "اكتشف عرفات فيّ خصلة أُخرى هي حرصي على أن يصغي القادة إليّ بانتباه، ويوسعوا صدورهم لانتقاداتي حتى حين تكون شديدة القسوة، فكان يتيح لي أتم الفرص" (ص 93).

وبصفته معارضاً مزمناً للتهويل، "وبما لي على عرفات من دالّة شخصية صرت تعرفها [يخاطب القارئ]، أبحت لنفسي أن أعترض بشدة" (ص 244).

هذا الغيض من فيض التميز لا يتوقف عند ياسر عرفات وحده. فخليل الوزير "خصني... بتحية متوددة... وأفرد لي مكاناً قريباً منه." وكان فيصل أفرغ ذات مرة أمام خليل الوزير سخطه على أمر ما، "بما في ذلك سخطي عليه. وما زاد أبو جهاد على أنه تبسّم" (ص 110). ويتكرر الأمر، ترحيباً وحفاوة، مع أبي إياد. كما أنه لا يتردد في ممارسة حقه في اقتحام خلوة بين عرفات وصلاح خلف (ص 446).

ولا يتوقف الأمر عند القادة الفلسطينيين. فالقائد السوري صلاح جديد يسعى لرؤيته، وقد "عودني على الإصغاء إلى انتقاداتي بصدر رحب" (ص 116). وعبد الحليم خدام "خصّني بعنايته وخاطبني بنبرة تشي برفع الكلفة" (ص 455). وهو لا يتوانى، وفي لحظة مصيرية من عمر القائدين البعثيين يوسف زعيّن وصلاح جديد، المهددين بزوال سلطتهما، عن أن يدخل عليهما في خلوتهما في اللحظة الحرجة، "وما إن أحيط المشغولان بالهم الثقيل علماً بوجودي حتى أذنا لي بقطع خلوتهما"، ليصغيا إلى نصائحه "قرابة ساعة" (ص 255). أمّا عند السوفيات فقد "حظيت... كالعادة بحفاوة ورعاية متميزتين" (ص 301).

ولا تتوقف مزايا شخصية أنا السارد عند هذا الحد، بل إنه يفرط في الحديث عن أوجه تميزها، وهو الذي يؤكد حرصه المزمن على التميز، ولا يمل من مخاطبة نفسه "إحتفظ بتميزك". حتى إن المحقق كان على علم ودراية بتميز الشخص المستفَز الذي أمامه، "لو كنت شخصاً آخر لضغطنا عليك" (ص 445).

لنقرأ المزيد من مزايا وسجايا وسمات هذه الشخصية المتميزة، بعناوينها العريضة، كما ترتسم بقلم صاحبها. فهو ساخر، خفيف الظل، يعمل على تأليف الطرائف وتوزيعها. "وبسخريتي ملكت انتباه القدومي بكامله" (ص 459). يحرص على "نقاوة الضمير" – كما يصفه ياسر عرفات، الذي "دأب على التنويه بتعففي كلما جاء على ذكري" (ص 325)، و"طهراني" – كما يصفه خالد بكداش – يرفض منحة علاجية من الحزب الشيوعي السوري لأن ثمة محتاجين من الرفاق هم أحق منه فيها (ص 440). أبيّ عنيد، "لكنه الإباء العنيد وهو الذي يشعل عنادي حتى حين لا يكون للعناد لزوم" (ص 317). وطني فلسطيني يعاقب على وطنيته. زاهد في المناصب والمال (على الرغم من تميزه عند القائد). يرفض غواية المال والعروض المالية دوماً، "عشت مرفوع الرأس، أحصل لقمة عيشي وعيش أسرتي بكدي وأرضى بأقل مما أستحق كي لا يأسرني فضل أحد عليّ أو يقيدني التعود على التمتع بالامتيازات" (ص 315). لا يحسب حساب الأكلاف، ولا ينافس

في استضافة الزعيم. وهو، إضافة إلى كل ذلك، يمتلك الرغبة في "التسلح بالإرادة ضد المشاعر الشخصية في أوقات الأزمات العامة" (ص 238). يتميز من الآخرين بأنه قادر على أن يتبصّر في الرواية التي يسمعها، "وقد سهّل على خبير مثلي أن يميَّز... إلخ" (ص 258).

وهو، في قضايا السياسة والفكر والرؤية الثاقبة، خبير بالتمييز بين الرجال والمواقف المتباينة. وهو "صحافي مدقق" (ص 384). "في التحليل السياسي... معلِّم" – كما يصفه عرفات. وهو يرى في نفسه "ميلاً مزمناً إلى إظهار الشهامة ومناصرة الضعفاء" (ص 260)، والانتماء إلى "خندق المظلومين وإلى الوطن المغدور" (ص 336). وهو كاتب يعتز باتباع هدي ضميره، ولا يجد راحة الضمير إلاّ بانحيازه إلى الضحايا، "حتى لو لم أكن واحداً منهم، فكيف وأنا كذلك!" (ص 490)

ولا يتردد الكاتب في الإشارة إلى الأهمية الاستثنائية لعموده اليومي، وتميزه، وما له من أهمية وشهرة وجذب للقراء. وعن هذا التميز يقول: "وإذا كان عمودي متميزاً فمبعث التميز أني أستند إلى معلومات أستقيها عادة من أوثق المصادر وأقرأ السياسة قراءة متبصرة" (ص 246).

في الرؤية السياسية ينتمي فيصل إلى "الذين لم تأكل الموجة الهائجة عقولهم" (ص 202)، أي إلى الاتجاه الذي يدعو إلى التعقل.. "لم أر في القبول بالقرار 242 خدمة لأي إمبريالية. بل رأيت في الميل إلى التعقل خطوة طيبة وحبذتها" (ص 267). وهو الاتجاه الذي يوسم بالـ "الواقعية" السياسية. وفيصل لا يتردد في وصف نفسه بأنه أحد جنوده "المقدامين" (ص 292)، وأنه كان سبق عرفات في الدعوة إلى التسوية (ص 434). أمّا الذين يحرضون ضد دعواته إلى التعقل، وعلى الرغم من افتتان أحدهم (رشاد أبو شاور) برياضة الملاكمة وإتقانه لها، فما أسهل أن يتغلب عليه فيصل "بالنقط وبالضربة القاضية معاً" (ص 342)، وما على الآخر إلاّ الاعتراف بهزيمته الماحقة أمام الواقعية السياسية المتعقلة!

وعلى امتداد الصفحات الخمسمئة، لا نكاد نعثر على لحظة يقف فيها المتميز أمام ذاته، يسائلها وينتزع منها اعترافاً بالخطأ، اللهم إلاّ حين يقول في أحد المواقف: "كنت قليل الصبر. وها أنا أقر بالخطأ" (ص 226)، وفي موضعين آخرين يعترف بأن الحصافة أعوزته.

قد يبدو الحضور الكاسح للأنا مسألة مفهومة في هذا النوع من الكتابة التي يكون فيها "البطل" هو السارد نفسه. لكنها المبالغة في بلاغة الشخصية الراوية في حديثها عن نفسها، أوقعت الكاتب في بطولة لا تتردد في تضئيل الآخر كي تبقى المساحة مفتوحة لحركة الذات التي لا تنسى للحظة تميُّزها من الآخرين.

* * *

في الكتاب ثلاث لحظات درامية تستحق الإشارة:

الأولى، تمثلت في لقاء الكاتب إخوته لأمه أول مرة وقد أصبحوا شباناً. وهنا يعترف الكاتب بعجز لغته عن وصف المشهد وما ينطوي عليه من مشاعر جياشة، "فهل بإمكانك أن تهديني إلى لغة تصف هذه المشاعر. كيف يصف الكلام مزيج ما داهمني وما انفلت من مخزوني" (ص 280). ومثل هذا العجز عن الكلام لا شك في أنه ينزع عن اللحظة الدرامية قدرتها على التأثير، فلا يبقى من الكتابة سوى الرهان على ما يمتلكه القارئ من خيال.

اللحظة الثانية تمثلت في مجيء الأم إلى دمشق ولقائها الابن الذي تركته طفلاً وأصبح الآن شاباً، وهي لحظة غنية أُخرى، وإن لم يفصح الكاتب عن عجزه عن وصف مشاعره بلغة مؤثرة، فإنها وإن ارتقت فنياً عن لحظة لقاء الإخوة إلاّ إنها لم تصل إلى أن تكون لحظة إبداعية ثرية.

غير أن ذروة الإبداع تجلت في اللحظة الأخيرة التي تنتهي بنهاية الجد. ففي الصفحات العشر الأخيرة من الكتاب يحشد فيصل حوراني طاقاته المخزونة ليفجرها كما ينبغي للنهايات أن تكون.. نهايات البشر ونهايات النص. وتبقى السطور الأهم والأكثر غنى في الكتاب، تتمثل في العودة الذكية إلى قصة قرأناها في الجزء الأول من "دروب المنفى" والموسوم "الوطن في الذاكرة". فعندما تزوج الجد هناك بامرأة أُخرى قاطعته الجدة بشكل صارم، وعبرت عن مشاعرها بعدم الحديث مع زوجها حتى آخر العمر. وهنا تعود المرأة إلى بيت العزاء من دون أن تتنازل عن موقفها الصارم في المقاطعة؛ فهي لا تجلس مع نساء الأسرة لاستقبال المعزيات بزوجها الذي قاطعته منذ أعوام طويلة، وإنما تحل كأي امرأة غريبة.. تطرح تعزيتها وتمضي، لأن زوجها الذي كان، فقدته منذ عقود من الزمن، ومن جاءت تعزي به يبدو شخصاً آخر لا يمت إليها بصلة.

إنها اللحظة الحاضرة.. الأكثر حرارة وغنى على امتداد الكتاب.

فاروق وادي

كاتب فلسطيني

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf